الفصل الخامس
أسماء مضيئة في التاريخ

سمية (أم عمار بن ياسر)

يحفظ التاريخ شخصيات أضاءت الطريق بأنوار لامعة، وسجَّلت اسمها في سجل الخلود، وهؤلاء الأسماء هم الروَّاد الأوائل لطُلاَّب الخير وعُشَّاق المعرفة، تتَّسم حياتهم بثبات العقيدة، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة. ومن هذه الشخصيات «سُمَيَّة» التي عُرفت في التاريخ بأنها من آل ياسر، الذين بشَّرهم المصطفى ﷺ بقوله: «**صَبْراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**». وهي أول شهيدة في الإسلام، سَجَّلت بدمها الزكي سطورَ الخلود في صفحات التاريخ.

اسمها

سمية بنت خباط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم.

ومما يحفظه التاريخ من شأنها أنها كانت أَمَةً حبشية سمراء، لا تملك من أمر دنياها إلا أنها تقوم بالخدمة في بيت مولاها الذي يأويها في بيته. وشاءت المقادير أن ياسر بن عامر كان من أهل اليمن، وخرج إلى مكة للبحث عن أخيه الذي فُقِدَ وانقطعت أخباره منذ مدة زمنية. وجاء ياسر إلى مكة وعاش فيها مدة قصيرة أحس فيها بالوحدة والملل، خاصة بعد تفرُّق القبائل في رحلتي الشتاء والصيف. وكان ياسر مشدود الخاطر إلى مكة بلد الحجيج وملاذ اللائذين، غير أن الجو في مكة لا يسمح بإقامته وحده، لأن الشعار المرفوع في مكة وقتئذ هو البقاء للأقوى، فكان على ياسر أن يوطِّد علاقته بسيد من سادات قريش يلتمس حمايته ويعيش في كنفه ليبعد عنه من أراده بسوء، فتحالف ياسر مع حذيفة سيد بني مخزوم، وقد أراد حذيفة أن يوطِّد هذا التحالف وأن يربطه بوثاق قوي متين، ففكر في إيجاد نوع من المصاهرة بينه وبين ياسر.

الزواج

مرت الأيام وهي بطيئة الخُطَى، لأن اليمنيّ النازح إلى مكة لم يجد أخاه، وعندما تحالف مع أبي حذيفة المخزومي ووقعت عيناه على «سمية» التي كانت تروح وتجيء وعلي وجهها بسمة الرضا بحياتها التي تحياها في بيت سيدها، وفي عينيها أمل وتطلع. ولما كان ياسر فيه عِفَّة الرجال وشهامة الشجعان حافَظَ على صيانة شرف البيت الذي يعيش فيه، وأسرع إلى حذيفة يسأله الزواج من أَمَتِه «سُميَّة»، وصادف هذا الطلب ما كان يجول بنفس القرشي، فلبَّي الطلب لحليفه ياسر، وانتقلت «سمية» من بيت سيدها إلى بيت «ياسر» الذي أَعَدَّه للزواج، وقد ظللتهما السعادة، وأتت ثمارها المباركة، وأنجبت «سمية» لزوجها ابنهما «عَمَّار بن ياسر». ومات أبو حذيفة المخزومي بعد ذلك، وشَبَّ «عمَّار»، ثم أنجبت المولود الثاني «عبيد اللَّه بن ياسر»، وتقدم العمر بياسر كما تقدم «بسمية»، وكانا يتطلعان إلى ولديهما فيريان أمل المستقبل وسعادة الحاضر.

النور الجديد

مضت الأيام على وتيرتها، قريش لاهية، تعبد أصنامها التي نحتتها بيديها وأقامتها في جوف الكعبة، وتسجد لها من دون الله. وهناك كؤوس بالخمر تُدار، وموائد للقمار يلتفّ من حولها الناس، وأموال تُبَعْثَرُ بلا غرض ولا هدف إلاَّ لإشباع لَذَّة.

والقوي يأكل الضعيف، فلا قانون يُحْتَرَم، ولا صوت للحق يرتفع. وقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس... في هذا الجو علت صيحة الحق مدوية من فم أطهر نبي وأزكي إنسان، يصيح في الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[1].

(١) سورة الحج، الآية ٧٣.

واتسمت الدعوة بالصِّدْق والإخلاص لها، والعمل الدائب لتوصيلها إلى آذان الناس بأن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]، إلٰه واحد لا شريك له في مُلكه، ولا سُلطان لأحدٍ عليه، خَلَقَ فَسَوَّى، وقَدَّرَ فَهَدَى.

ووقفت قريش تنظر إلى الداعي وهي ضاحكة لاهية، ساخرة مستهزئة، يقول بعضهم لبعض: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾[2].

وانصرفوا من حول الدَّاعي وهم يتغامزون. ولكن هناك شخصيات فكَّرت فيما سمعت، ونظرت إلى الداعي وصِدْقه وسيرته في قومه قبل أن يقول ما قال، وقد انشرح صدرها لما يقول، وأشرق نور الإيمان في قلوب هؤلاء الناس الذين التفُّوا من حول رسول الله ﷺ، وارتاحت ضمائرهم إلى الإيمان والتصديق به، من هؤلاء «عَمَّار بن ياسر»، الذي آمن عندما بلغته الدعوة وما تردَّد، وتوجَّه على الفور إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهي الدار التي ربَّتِ الرجالَ، وعَلَّمَتِ الأبطالَ، وصنعت فئة جديدة من البشر يمشون على الأرض بهدى السماء، ويُعايشون الناسَ بِسَمْتِ الحكماء، تعرفهم بسيماهم: الثبات في قلوبهم، وقوة الإرادة من صفاتهم، وحُسن العلاقة من طبعهم.

ودخل «عَمَّار» إلى هذه الدار، وعُرِضَ عليه الإيمان، وتُلِيَ عليه القرآن من أستاذ الإنسانية وهاديها، وكان يلتفت حوله فلا يري إلا أشخاصاً لا يتجاوزون عدد أصابع اليد. وذهب عمَّار إلى بيته، والتأم شمل الأسرة في جلسة عائلية يتدارسون أمورهم، وهنا عرض «عَمَّار» الإيمان على أبويه فأسلما وما تردَّدا، لأن ««عماراً» كان يدعو بتحمس شديد، وعندما نطق «ياسر» بشهادة الوحدانية لله ردَّدتها «سمية»

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٢) سورة صٓ، الآيات ٥ ـ ٨.

في ثقة وثبات، وسجَّلت تلك الأسرة لنفسها السبق إلى الإسلام، حتى وَرَدَ أن «سُمَيَّة» كانت المرأة الثانية بعد خديجة رضي الله عنها التي أسلمت وصَدَّقَتْ بكلمات ربها. وطابت نفوس تلك الأسرة وتطلَّعوا إلى الله ومَرْضاته، وسألوه أن يعينهم على أداء الواجب المنوط بهم.

صبر وصمود

إن البلاء موكل بالأمثل من الناس، ودائماً يكون هناك اختبار لأصحاب العقائد، وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

ولقد تنادت قريش أَنْ عَذِّبُوا آلَ ياسر وصُبُّوا عليهم جام الغضب لأنهم آمنوا بمحمد! وأسرعت الزبانية القساة يلبُّون الأمر الرهيب، وتقدم جلاَّد قريش الفظّ، الغليظ القلب، أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ الذي أعلن شعار التعذيب والتنكيل بكل من آمن بمحمد، ولا بد لكل قبيلة أن تنكل بمن آمن منها، وأن تسيمهم العذاب الأليم.

وسِيقَ الضعفاء من المؤمنين وهم مُكَبَّلُون بالحديد، والسياط تلهب ظهورهم، وصياح الأطفال من خلفهم، والرمي بالحجارة يتقاذفهم من كل جانب، ثم يُرْمَي بهم في الصحراء، وحرارة الشمس الملتهبة تلفحهم، والحجارة الثقيلة تُوضَع على ظهورهم، وأهل مكة يضحكون ويشيرون بأصابعهم إلى المؤمنين ويقولون: إن هؤلاء لضالُّون، ولكن ماذا يفعل العذاب في قلوب امتلأت بالنور الفيَّاض؟ ليس عجباً أن تموت حساسية الجسد ويَفْنَي شعوره بالتعذيب في الوقت الذي تكون في قوة الروح عصمة، وفي عظيم الإيمان درع ووقاء.

لقد عُذِّبَ بلالٌ مثلاً ونُكِّل به وما زاده ذلك إلا إيماناً. أما سيدتنا «سمية» وزوجها «ياسر»، وابنهما «عَمَّار» فكان أهل مكة يقيِّدونهم بالسلاسل ساعات

(١) سورة محمد، الآية ٣١.

وساعات في القيظ الشديد، والرمال الساخنة تلهب الأجساد، والدماء تنزف تحت ضربات السياط، وصوت «سُمَيَّة» في هذا الجو يرتفع مُرَدِّداً: أَحَدٌ، أَحَدٌ، فردٌ صَمَد. ويجيبها صوت زوجها وهو يئنُّ ويتوجَّع، ويجيبهما ولدهما الشجاع «عَمَّار». وفي كل لحظة كان يتفنن أبو جهل في نوع جديد من العذاب ـ فجاء أمام عينيها وأغرق ولدها في الماء، وكانت السياط ترتفع أمام عينيها لتهوي على ظهر ولدها ووجهه، وقد ظن اللعين أنها ربما تتوسل إليه ليرحم ولدها وفلذة كبدها، ولكنْ خاب ظنه، فلم يسمع منها غير الكلمة التي أثارت حقده، وزمجر عندئذ وصاح متوعِّداً مُهَدِّداً. وبدا حنان الأم يظهر، ولكن في صورة أخرى، فارتفع صوتها في قوة وثبات لتشجِّع ولدها «عَمَّاراً» وزوجها «ياسراً»، وهنا تذهل قريش أمام روعة هذا الإيمان، وما دروا أنَّ مَنْ يتصل بالله يهون في عينيه كل شيء، لقد كان صبر «سُمية» يرهب أبا جهل، وكان إيمانها يؤرقه، ومن هنا كان يصب جام غضبه على زوجه وولدها علَّها تلين وترجع، ولكن دارت عجلة الأيام وقريش تتحدث عن تلك الأسرة وصبرها وصمودها وتحمُّلها هذا العذاب الأليم الذي تعدِّدت ألوانه، وتفنَّنوا في أنواعه وما زاد الأسرة التي تعذب إلاَّ صبرا.

مساومة ورفض

إن صبر تلك الأسرة جعل قريشاً تسأل: هل أعتق أبو حذيفة «سمية» قبل أن يموت أم لا؟ واستقر رأيهم على أنها أَمَة لم تُعتق، فهي وابنها رقيق بحكم الوضع المتعارَف عليه، والرقيق مملوكون في قبضة السَّادة. وأُعْلِنَ على الملأ أن «سُمية» وابنها عبيد. ولمَّا كان ما تحلَّوا به من صبر أثار نفس قريش، خاصة أنه نزل بهم عذاب رهيب لو أُنزل على أَعْتَي العُتاة لاستسلم لما يريده الجلاَّدون، فقد عرض عليهم أن يسبُّوا محمداً وأن يعيبوا دينه ويعترفوا بأرباب قريش وأصنامهم، وما إنْ سمعت «سُمية» هذا العرض حتى سخرت منهم ومن أصنامهم، ولقد أنذرتهم بالويل يحل بساحتهم، وعذاب النار ينتظرهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وتمنَّت لمحمد السلامة والتوفيق في دعوته.

وجُنَّ جنون قريش عندئذٍ، ولكنهم أفاقوا على صوت «سُمَيَّة» التي تتحدث عن الجنة التي وعد الرحمٰن عباده بالغيب، وانقضُّوا عليهم من جديد بنفوس مسعورة وعيون يتطاير منها الشرر، وأخذ العذاب سيرته بألوان شتَّى. وهنا مَرَّ الصِّدِّيق أبو بكر على تلك الأسرة التي امتحنت أشد امتحان، وصبرت أعظم الصبر، وعرض على المشركين أن يشتريهم بماله من بني مخزوم، ولكنهم رفضوا، ووقف دونه أبو جهل الذي حاول بكل ما أُوتِيَ أن ينكل بهم، وأن يجعلهم عبرة لغيرهم، ولكنَّ أبا جهل أفاق على صوت ياسر وهو يقول:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً ... علي أيِّ جنبٍ كانَ في الله مصرعى

بشري ونهاية المطاف

تولي نهار وأقبل ليل وأُسرة «ياسر» حيث هم في العذاب مقيمون، وبإيمانهم مستمسكون، وَمَرَّ عليهم رسولُ الله ﷺ ونظر إلى الحديد في أيديهم، والحجارة على ظهورهم، وحرارة الشمس تلفح وجوههم، وآثار السياط على أجسادهم، فرفع الرسول ﷺ وجهه إلى السماء وقال لهم: «**أبشروا آلَ ياسر واصبروا، فإن موعدكم الجنة**».

واستشعرت تلك الأسرة جلال الموقف. إنهم صابرون ثابتون على العهد، وطافت بهم نسمات هنيئة من ريح الجنة أنستهم ما هم فيه من آلام، وتخيلوا ذلك النعيم المقيم في جنات يسعدون فيها مع النبيِّين والصِّدِّيقين. إنهم في تأمل باسم لغد مشرق. ومضت الأيام تلو الأيام، ووهن «ياسر» الذي همس لزوجته أنْ أبشري فإن بشري سيدنا محمد ﷺ موشكة أن تتحقق، وأنا أرى بعيني الآن ملكوت الله الأعلى، وأسمع أصوات الملائكة تدوِّي في سَمْعِي. وعرفت «سُمَيَّةُ» أن زوجها أوشك على الفراق، وأنه على مشارف جنات النعيم، وغمرتها فرحة عظيمة جدًّا عندما سمعته ينطق بكلمة التوحيد، وفارق الدنيا في نهايتها، وبكت «سمية»، بكت لأن أيامها تأخرت عن أيامه، وكان بكاؤها بكاء الحنين إلى الرحيل لتلحق برفيقها في جنات النعيم.

وعندما سمعها أبو جهل وهي تبكي أسرع إليها متنمِّراً شرساً، وانهال عليها بالسوط فلم تئنّ ولم تتوجَّع، وراح اللعين يضرب ويضرب، وهي ملقاة على الرمال وقد تعرَّي جسدها، فلما تعب من الضرب استدعي أحد العبيد، وتولي من بعده مهمة التعذيب أشخاص وأشخاص كَلُّوا وما توجَّعت، وهنا غلا الدم في عروق أبي جهل وامتلأ قلبه بالغضب على تلك الأَمَة التي أبت أن تطيعه ولو ظاهراً لترضي غروره، ولكنها سخرت منه، فمدّ يده إلى حربة مُحَمَّاة وطعنها في مكان عفتها، وانتظرها أن تلفظ بكلمة أنين، ولكنها ابتسمت وقالت: فزتُ ورب الكعبة، ونطقت بالشهادتين، وتهلَّل وجهها بالبِشْرِ، وغمرها نور اليقين، وقد صعدت روحها إلى بارئها. إنها أوَّلُ شهيدة في الإسلام كتبت في سجلّ الخالدين، وصارت مثلاً يُحْتَذَي لكل مسلمة ترجو ربها وتطمع في صُحْبَة الأخيار من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

فسلام عليك يا أَوَّلَ الشهداء في الأولين والآخرين، وسلام عل المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أسماء بنت أبي بكر الصديق
ذات النطاقين

صورة نادرة، ومُثُل رائدة للمرأة العظيمة التي صنعها الإسلام، وغَيَّرَ مجريات الأحداث بالنسبة للمرأة في المجتمع الإنساني.

لم يشهد التاريخ مثالاً بهذا الطراز الفريد الذي صنعه الإسلام، إننا أمام شخصية فريدة، ضربت أروع الأمثال، وتركت بصمات الشهامة وحُسْن التصرف واللباقة تتحدث عنها بأحرف من نور، وأول ما يجب أن نعرفه عنها:

اسمها وإسلامها

هي: أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق بن أبي قحافة.

أما أُمُّها فهي «قتيلة بنت عبد العزى». وأسماء هي أخت أم المؤمنين «عائشة» من أبيها رضي الله عنها، وقد أسلمت بمكة في أول الدعوة بعد أن أسلم سبعة عشر

إنساناً، وعاشت في بيت الطهر والنقاء، بيت الصِّدِّيق، شيخ الصحابة وأكرمهم.

مواقف من حياتها

تشاور المشركون فيما بينهم على قتل رسول الله ﷺ، وأطلعه الله على ما بَيَّتُوا، وأنهم اتفقوا أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًّا قويًّا نسيباً، ومع كل فتى سيفاً قاطعاً، ثم يعمدون إلى الرسول ﷺ فيضربونه ضربة رجلٍ واحدٍ فيتفرق دمه في القبائل، وعندئذٍ لا يقدر بنو هاشم على حرب القبائل فيقبلون الدية. ولكن كانوا هم يمكرون وعند الله ما مكروا، وأمرَ الله الرسولَ ﷺ بالهجرة، وكان أصحابه قد هاجروا.

وبدأ الرسولُ ﷺ في التخطيط المُحْكَم، والعمل المنظَّم، واستنفد جهده في ذلك، وترك الباقي على الله الذي لا يُضيع أجْرَ من أحسن عملاً. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس في بيتنا بمكة أول الزوال عند شدة الحر قال أبو بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً ـ أي: مغطياً رأسه ـ وذلك في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي أَنْ جاءَ ـ أي: ما جاء به في هذه الساعة إلاَّ أَمْرٌ حَدَث ـ فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فَأُذِنَ له، فلما دَخَل تأخر أبو بكر عن سريره فجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ثم قال: «**أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عندك**» ـ وكانت عائشة وأسماء ـ فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هما ابنتاي. فقال الرسول ﷺ: «**قد أُذِنَ لي في الخروج والهجرة**». فقال أبو بكر: الصُّحْبَةَ يا رسول الله! قال: «**الصحبة**». تقول السيدة عائشة: فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. وكان الرسول ﷺ يتكتَّم الأخبار حتى لا يُذاع أمره ويُفشى سرُّه، ويقابل تخطيطه بتخطيط مضاد، وتلك دروس يجب أن نستفيد منها.

ولما خرج الرسول ﷺ للهجرة ومعه أبو بكر رضي الله عنه، جاء نفر من المشركين وفيهم أبو جهل إلى دار أبي بكر، فخرجت أسماء إليهم، فسألوها: أين أبوك؟ فقالت: والله لا أدري أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ

فلطمَ أسماءَ على خدها لطمة طَرَحَ قُرْطَها ـ أي: الحَلَق ـ وذلك أنه ضربها بشدة، فاحتملت وصبرت ولم تَبُحْ بالسر، لأنها ائتُمِنَتْ، والمسلم أمينٌ وفيٌّ.

هذا وتقول أسماء: لمَّا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله، وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، فقالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة فقال: والله إني لأراه قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه.

قالت أسماء: كَلاَّ يا أبتِ، إنه تركَ لنا خيراً كثيراً. ثم أخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوة «الثقب في الحائط» في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبتِ ضَعْ يدك على هذا المال. فوضع يده عليه ـ وكان كفيفَ البصر ـ ثم قال: لا بأسَ، إنْ كانَ تَرَكَ لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. تقول أسماء: والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردتُ أن أُسَكِّن الشيخ بذلك. يا للعجب!! إنه تصرف رائع وتخلُّص جميل! كان أبو قحافة ما زال على الشِّرْكِ، فأرادت أن تسكِّن نفسه حتى لا يرتاع، ومن فعل ذلك: إنها أسماء التي لطمها أبو جهل عَمًّا قريب فلم يُرهبها، ولم تخف، بل تخلصت بسرعة وبلباقةٍ ما كانت تخطر على بال إنسان. إنه الإلهام: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾[1].

ثم إنها كانت تحمل الزاد والماء وما عَسَى أن تكون قد سمعته من أخبار أو رأته من تصرف القوم، وتسير قرابة ثلاثة أميال في جوف الليل بين الصخور والرمال ماشية متخفية، حَذِرَة مترقِّبة، حتى لا تراها العيون، وهي وحدها ليس معها أنيس أو دليل اللَّهُمَّ إلا نور الإيمان وعلاقتها بالله. لقد كانت تذهب إلى الغار الذي يأوي خير البشر برفقة أبيها، وهي تقوم بتلك المهمة الخطيرة، كان أمثالها يذهبون إلى ملاعبهم ويأوون إلى صُدور أمهاتهم، ومع ذلك تجتاز المغاور، لأن الجزيرة العربية كان يجري فيها حديث عن أطياف الجن والغول، ولا يقوي أشد الرجال أن ينزل وحده في الصحراء حتى يستعيذ برب الوادي، غير أنها بإيمانها

(١) سورة الطلاق، الآيتان ٢ ـ ٣.

تغلَّبت على الخوف وعلي الجُبْن وعلى كل شيء، وشعرت بمسؤوليتها أمام الأجيال، لأنها تفعل ذلك في سبيل العقيدة والإيمان. إنَّ مثلها يبحث عن فساتين الموضة، وآخر صيحات «الباروكة» من الشعر، و«مانكير» الأظافر، ولكنَّ «أسماء» لها الله المعين طرحت كل شيء وراء ظهرها، وأقبلت تخدم المبدأ، وتضرب المثل للمرأة أن تكون وفية لدينهاالذي يشرح صدرها، وينير لها سُبُل الحياة، إنَّ لطمة النذل أبي جهل ما زال أثرها على أذنها، وكذا صوت جدها وهو يناديها، لقد تخلَّصت من كل ذلك.

ثم ها هي ذي تقطع الفيافي وتذهب إلى الغار في الظلام، وتقدم الطعامَ والماء، وتسرد الحديث، وتؤنس نفسها بتلاوة القرآن الكريم. ولقد سلمت من عثرات الطريق، لأن الله حاميها، وهو سبحانه الذي أوحى إلى الدنيا: «**يا دُنْيا، مَنْ خَدَمَنِي فاخْدُمِيه، ومَنْ خَدَمَكِ فاسْتَخْدِمِيه**». إنها خدمت الحق فَسَلِمَتْ، وبذلت في سبيل الخير فَأَمِنَتْ.

ولقد استمرت في قطع الطريق المخيف ثلاثَ ليالٍ، وعندما أزمع الرسول ﷺ على مفارقة الغار أتتهما أسماء بزادِ السفر وما يصلح لهما في الطريق، فلما ارتحلا ذهبت تُعَلِّق السُّفْرَة[1] فإذا ليس لها عِصام[2]، فلم تجد ما تعصم به إلا نطاقها، فشقَّته نصفين، فعصمت السُّفرة بنصفه ووكأت السقاء بباقيه. فبشَّرها رسولُ الله ﷺ بنطاقين في الجنة، وسُمِّيَتْ بذلك من هذا التاريخ: «ذات النطاقين»، الله أكبر، إن الإيمان قوة، والمؤمن يصنع المعجزات بإيمانه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3].

هذه هي أسماء لا تُذكر الهجرة إلاَّ ويُذكر حديثها بالإعجاب والتقدير. وهي الصابرة المحتسبة، فقد احتسبت ولدها عند الله، لأنه مات على الحق، ودفاعاً عن الحق، وقالت له: «لَضَرْبَةٌ بسيفٍ في عِزٍّ خَيْرٌ من ضربة بسوط في ذُلٍّ».

رضي الله عنك يا أسماء وأرضاكِ جزاءَ ما صَنَعْتِ من خير.

---

(١) السُّفْرة: طعام يُصْنَع للمسافر.

(٢) العِصتم: حبلٌ تُشَدُّ به القربة وتُحْمَل، أو عروة الوعاء التي يُعَلَّقُ منها.

(٣) سبق تخريجها.

ومع ذلك كانت صَوَّامةً قَوَّامَةً، سخية النفس، راغبة في التصدُّق على الفقراء. قَدِمَ ابنُها من العراق فأرسل إليها بكسوة من ثياب مروية[1]، فلما لمستها بيدها قالت: أُفٍّ، ردوا عليه كسوته.

فشق ذلك على ولدها وقال: يا أمة، إنه لا يشف. فترد عليه قائلة: إذا كانت لا تشف، فإنها تصف.

كانت عفيفة كريمة، وهي مَثَلٌ نقدِّمه إلى أمهاتنا وأخواتنا ليكون عبرة لمن أراد أن يعتبر، رضي الله عنها وأرضاها.

فاطمة بنت الخطاب
رضي الله عنها

هي أخت عمر بن الخطاب، وقد أسلمت وهي دون العشرين من عمرها، وقد أسلم زوجها أيضاً ـ سعيد بن زيد ـ وكان إسلامها في أول الأمر قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي هي بحق المدرسة العلمية، ذات المناهج المتعددة في التربية الخُلُقية، وغرس القيم والفضائل، ومنها تخرَّج قادة الدنيا الذين فتحوا العالم، وطَبَّقُوا نُظُم العَدْل والمساواة لأول مرة في التاريخ.

تعذيبها

كانت السيدة «فاطمة» أسبق للإسلام من أخيها «عمر بن الخطاب»، وكانت تكتم إسلامها عنه، لأنه اتَّصَفَ بالشدة والغِلْظَة على المسلمين، وكان يعذب المسلمين ويشهد التنكيل بهم. وكان قد أخذ سيفه وتوجَّه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ليتولي قتل الرسول بنفسه، حتى يريح الناس ـ حسب زعمه ـ وبينما هو متوشح سيفه قابله أحد المسلمين، فقال: إلى أين يا عمر؟ قال: أريدُ قَتْلَ محمد لأنه سَفَّهَ أحلامنا، وعاب آلهتنا، وفرَّق كلمتنا. فقال له: ابدأ بأهلك أولاً! فقال

(١) نسبة إلى «مَرْو»، مدينة فارسية.

عمر: أوَقد أسلم أحد من آل الخطاب؟ قال: نعم، أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد.

فرجع «عمر» مسرعاً إلى بيت أخته، وبعد أن دخل قال لها: يا عدوة نفسها، بَلَغَنِي أنك صَبَأْتِ، ثم ضربها، وعندئذ وَثَبَ عليه زوجها «سعيد» فطرحه «عمر» على الأرض وجلس على صدره، فلما جاءت «فاطمة» تمنع عن زوجها الأَذَى لطمها «عمر» لطمة شَجَّ وجهها، فسال دمها، فلما رأت الدم بكت وقالت لأخيها: أتضربني يا عَدُوَّ الله عَلَى أَنْ أُوَحِّدَ الله؟ لقد أسلمتُ لله رب العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل... ولما رأى «عمر» الدمَ يسيل من وجه أخته نَدِمَ على ما فَعَلَ، وشعر بشيء يسيطر على نفسه، وأنه أصبح ضعيفاً. «عمر» القوي الشديد انهارَ وجلس بجوار الحائط، ثم قال لأخته: ناوِلِيني ما كنت تقرئينه، فترد فاطمة في ثقة وعزم وتقول: إنه قرآن، لا يمسه إلاَّ المطهَّرون، وأنت مشرك نجس لا يحل لك أن تقرأ فيه ولا تلمسه بيدك إلا إذا تَطَهَّرْتَ. وبعد حديث طويل قام عمر واستجاب لتوجيهات أخته، ثم رجع إليها فناولته الآيات التي كانت تحفظها هي وزوجها: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾[1].

هنا شعر «عمر» برعشة تسري في جسده، وكأنَّ شيئاً خفيًّا يدفعه إلى أن يعتنق هذا الدين، لأن فيه ما يتلاءم مع فكره، وشعر كأن يداً خفية حوَّلت قلبه، وأنه أصبح سلس القياد، لَيِّن العاطفة. فأعلن إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم. يقول عبد اللَّه بن مسعود: ما زلنا أَعِزَّةً منذ أسلم «عمر»، والفضل في ذلك يرجع إلى أخته التي لم تضعف أمام تهديده ولا وعيده. و«عمر» عرف عنه الشدة، حتى إن إحدى المهاجرات إلى الحبشة ـ واسمها ليلى زوجة عامر بن ربيعة ـ تعبِّر عن ذلك فتقول: كان عمر من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أريد أن

(١) سورة طٰه، الآيات ١ ـ ٨.

أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به، فقال: إلى أين يا أم عبد اللَّه؟ فقلت: قد آذيتمونا في ديننا فنذهب في أرض الله حيث لا نُؤْذَى. فقال: صحبكم الله. فلما جاء زوجي وأخبرته بما رأيتُ من رِقَّة «عمر» قال لي: أترجين إسلامه؟ والله لا يسلم حتى يسلم حِمارُ الخطَّاب. وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين. ولذلك كان إسلام عمر رمز هيبة وعز ومَنَعة للمسلمين، وقد أدرك الكفَّار كآبة شديدة حينما علموا بإسلامه. أمَّا «فاطمة» صاحبة القلب الكبير التي صبرت واحتسبت فقد غمرتها سعادة لإسلام أخيها الذي أصبح الدرع الواقي للضعفاء، كما أنه صار نصير المساكين، ورافع الظلم عن كاهل المظلومين.

هجرتها

أقامت «فاطمة» بمكة مع زوجها «سعيد» الذي آثر المقام بجوار الحبيب المصطفى، وقد نالهما من الأَذَى الكثير، فصبرا واحتملا حتى تمت الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجرا إليها مع المهاجرين. ومضت «فاطمة» في حياتها العامة تبذل المال وتجود بكل شيء إعزازاً للدين، وإعلاءً لكلمة الإسلام، وضربت مثلاً كريماً على صبرها وجهادها وإخلاصها لدينها، واستمساكها بعقيدتها إلى أن لقيت ربها راضية مرضية. فسلام عليها وعلي آلها من الخالدين الأبرار.

المسلمة المبايعة «نسيبة بنت كعب»

هذه شخصية تحدثت عنها كتب السير والتاريخ بالإعجاب والتقدير لدورها البطولي، وخوضها المعارك بكل بسالة وشجاعة وإقدام.

اسمها ونسبها وإسلامها

هي: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف، وينتهي نسبها من جهة الأب إلى بني النجار. أمَّا أمها فهي الرباب بنت عبد اللَّه بن حبيب بن زيد، وينتهي إلى الخزرج، ولما بَعَثَ الله بالرسالة سيدنا محمداً ونَزَلَ عليه قول الله سبحانه:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1]. وبدأ الرسول ﷺ يُبَلِّغ دعوة ربِّه بالرفق واللين والموعظة الحسنة، ولكنَّ المشركين أرادوا أن يصرفوه عن دعوته تارة بالشدة، وتارة بالعنف، ومرة باللين.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2]. وإذا كان أهل مكة وقفوا في وجه الداعي وتطاولوا عليه، وهو صابر محتسب امتثالاً لأمر الله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3]. ويقول الله له: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[4].

وشاءت إرادة الله أن تبلغ الدعوة مسامع بعض أهل يثرب الذين يفدون على مكة للحج في موسمه، وكانت هناك مبايعة أُوْلَى بين النبي ﷺ وبين اثني عشر رجلاً من أهل يثرب، سُميت «بيعة العقبة الأولى»، وكان مضمونها أنهم «لا يشركون بالله شيئاً، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتي الواحد منهم بِبُهْتان يفتريه بين يديه ورجليه، ولا يعصينَ في معروف». ورجع هذا الوفد ومعهم «مُصْعَبُ بن عمير» السفير الأول في الإسلام، ليوطِّد العلاقة، ويُفهِم الناس ما لهم وما عليهم، ويُقرئهم القرآن، ويعلِّمهم مبادئ الإسلام، ويكون عنوانَ صدقٍ وعلامةً مميزة للإسلام في تلك المنطقة.

ومَضَى عام وأقبل الحجيج من أهل يثرب لمكة لتأدية المناسك، وكانوا خمسة وسبعين مسلماً: ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين: «أسماء بنت عمرو بن عدي»، و«نسيبة بنت كعب». وكان هذا الوفد هو طليعة الزحف المقدس الوافد إلى أكرم داعية لتكون هناك بيعة على السمع والطاعة في المنشط والمَكْرَه، في

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣٢.
(٣) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.
(٤) سورة الحجر، الآيات ٩٧ ـ ٩٩.

العُسْر واليُسْر، وكان الوفد الذي يضم بعض النساء صادق الإيمان، قوي العقيدة، وقد أقسمت المرأة كما أقسم الرجل أن تكون معه في ميدان النضال المستمر حتى يتم نصر الله. وقد كان لنسيبة دور قياديّ وطليعيّ في هذا العمل الجليل، ومن وقتها وقد وفت بما أقسمت عليه، فكانت تعد العُدَّة وتوطِّن نفسها وما ملكت يداها لمواجهة ما سوف تفرضه عليها ظروف الحياة الجديدة، ومع هذا فقد كان زوجها وولداها من أوائل الطليعة المباركة الذين نعموا بالإسلام، وستنعم الدنيا بجهادهم، حيث يسجِّلون أعظم صفحات الطُّهْر والوفاء لأكرم مبعوث بأعظم رسالة.

ورجعت «نسيبة» إلى يثرب تنشر الدين وتبشِّر به في مجامع أضرابها، وقد رآها الذين يعرفونها أنها رجعت بقلب غير القلب الذي ذهبت به، فقلبها الآن مُلِئ بالدين القَيِّم، وفيها ثبات وإقدام وتضحية، وتحمُّل للمشاق، مع صبر وإيمان راسخ. وإذا كانت يثرب قد فرَّقتها الحزبية المقيتة والخلاف المستمر بين الأوس والخزرج ودَسَّ اليهود بين الأوس والخزرج، وإشعال نار العداوة بين الفريقين، فإن يثرب بعد عودة تلك الفئة التي بايعت النبي المختار بدأت تتجمع تحت راية التوحيد، وبدأت النفوس تشعر بالاستقرار والهدوء، والقلوب يشع فيها نور الإيمان فيغسلها من الأحقاد والضغائن ويطهِّرها من عصبية الجاهلية، وأحس الجميع بحياة جديدة تنتشر في آفاق المدينة التي اكتوت طوال السنين بحروب وخلافات وها هي ذي الآن يعمها هدوء وسكون وتجمع تحت راية الإسلام، وحول كلمة التوحيد، وتوجيه نبي الإسلام الذي بُعِثَ رحمة للعالمين.

استقبال حافل

استتب الوضع في يثرب وهدأت الأمور فيها، وشعَّ نور الإيمان في أرجائها، وكان للسفير الأول دور إيجابي وعمل بطولي في نشر تعاليم الإسلام وتوصيله قدر المستطاع إلى كل أسرة، وإدخاله إلى كل بيت. في نفس الوقت كان الحصار يشتد على المسلمين في مكة، بل وصل الأمر بأهل مكة أن تآمروا على قتل الداعية العظيم والرسول الأمين الذي يقول ربِّي الله، وهو يدعوهم إلى الخير ولكنهم صَمُّوا

آذانهم، وأعموا أبصارهم، واستغشوا ثيابهم، وجمعوا شبابهم ليريقوا أطهر دم، ويزهقوا أعفَّ روح، وأَذِنَ النبيُّ لأصحابه وأتباعه بالهجرة من مكة إلى المدينة «يثرب» التي انتشر الإسلام في جنباتها، وتردَّدَ اسم الله بالإكبار في كل بيت من بيوتها. وهاجَرَ الأصحابُ تاركين أموالهم وديارهم، ولكن العقيدة في نفوسهم ثابتة لا تتزعزع. ومكث الرسول الكريم مع صديقه الوفي أبي بكر الصِّدِّيق حتى اطمأن على أن أصحابه هاجروا، وعلم بنبأ وصولهم، وهكذا يجب أن يكون القائد الملهم، يخطط لأصحابه ويطمئن عليهم، حتى حانت ساعة الصفر المحددة، وخرج الرسول ﷺ ومعه رفيقه ونزلا بالغار، وكانت رعاية الله معهما، وعبر عن ذلك الرسول ﷺ لأبي بكر: **«ما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا»**. وآن للركب المبارك أن يصل إلى مشارف «يثرب» حيث كان يتجمع أهلها ليحظى الجميع بمشاهدة الهادي صاحب الرسالة، الذي يدعو للتي هي أقوم.

كانت «نسيبة» بين المتلهفين على تلك الرؤية، لأن في خيالها صورته في تلك الليلة الخالدة التي لن تُمْحَى من ذاكرتها حتى ولو غَيَّبَها التراب. لقد كان يرن في أذنها صوته الحبيب وهو ينساب هادئاً كنسمة طيبة وهواء بليل هَبَّ ساعة قيظ، ونبرات هذا الصوت الحبيب لم تغب عن أذنها، لأن توجيهاته وتعليماته أمانة في عنقها، وقد تاقت طوال تلك المدة وهي تطمح أن يكون المستقبل أحسن من الماضي، وأن تكون هي رائدة عمل يسعد الداعين، ويكون سبباً لفتح جديد في دنيا الرسالة الخالدة، وانسابت مع أحلامها، ولكن سرعان ما فاقت على صوت أضرابها يردد:

طلـــعَ البـــدرُ علينـــا ... مـــن ثَنِيَّـــاتِ الـــوداع
وَجَـــبَ الشكـــرُ علينـــا ... مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا ... جِئْـــتَ بـــالأمـــرِ المُطـــاع
جِئْـــتَ شَـــرَّفْـــتَ المـــدينـــة ... مـــرحبـــاً يـــا خَيْـــرَ داع

ودخل الرسول ﷺ المدينة «يثرب» التي أصبحت منار الإسلام، ومَحَطَّ أنظار العالم، وملتقي الصفوة المختارة من الذين اهتدوا بهدي الإسلام. وأقبل طلاب

العلم الحق، وعُشَّاق المعرفة الصادقة إلى هذا المنهل الرافد، ينهلون من علمه، ويغذون عقولهم بالمعرفة، وانصهر سكان المدينة في بوتقة الطهر والعفاف، ومُحيت الأحساب والأنساب، وتَسَمَّى الجميع باسم الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾[1] وآثروا المهاجرين على أنفسهم، وقَدَّمُوا خيرَ ما عندهم، طيبة بذلك نفوسهم، مبسوطة أيديهم غير مانِّين، ولا شاحِّين، وفي هذا الجو الكريم الطاهر اجتمع الجميع حول نبيهم الكريم ينهلون من علمه، ويتعلمون ويسمعون منه ما أنزل الله عليه، وأصبح مجلسه يشهده الجميع. وحرصت «نسيبة» على شهود تلك المجالس، وكانت تسمع منه وتأخذ عنه، وتعي ما يقول، وتعلمت ما ينفعها في دينها ودنياها، ووصل إلى مسامعها إكرام الإسلام للمرأة وإنصافه لها: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2]. ثم بيان الإرث وحق المرأة في ذلك، إلى غير ذلك من الأمور التي أحاط الله بها المرأة، وإقرار الحقوق الإنسانية في غير ما ضرر ولا ضرار.

تعملت «نسيبة» ذلك، وكم أسعدها هذا التشريع الإلٰهي الذي أوضح الأمور وبَيَّنَ الحقوق، وكانت هي تأخذ ذلك وتنقله إلى غيرها من بنات جنسها في تحمس شديد وثبات عظيم، ومضت الأيام، وأخذ التشريع يحدد علاقة الدولة الفتية بالدول المحيطة بها، والذين يتربصون بها الدوائر ويكيدون لها، ويمكرون بمن فيها. وعندئذ اتجه التشريع إلى بيان أن الجهاد فرض ثابت على الرجل والمرأة. وهلَّلت «نسيبة»، وشعرت بشيء غامض بدأ يظهر في الأفق، فهناك استعداد للخروج لمقابلة قافلة تحمل تجارة قريش، ومع ذلك فقد خرجت «نسيبة» مع الخارجين، وشاءت إرادة الله أن تكون موقعة بدر الكبرى، ويتم الله النصر للمؤمنين، وكانت نسيبة تسقي الجيش بالماء، وقد أدَّتْ دوراً عظيماً في تلك المعركة الخالدة.

بطولة نادرة

رجعت قريش من «بدر» وقد كَسَر الله شوكتها، وحَطَّمَ غرورها، ولم تنسَ

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

قتلاها لأن نساء المشركين ما زلن تتذكر كُلٌّ منهن في القتلى ابناً، أو أخاً، أو أباً، أو زوجاً، يبكين عليه، ويؤلبن السادة من أهل مكة للأخذ بالثأر، حتى تهيَّأ الجميع لغزوة أُحُد، وخرج المشركون في جيش جرَّار، واستنفروا معهم حُلفاءَهم، ومن اتبعهم من الأحابيش، كما خرجت نساء قريش وعلي رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان التي كانت تتشوق إلى المعركة لتثأر لأبيها وأخيها، وفي المدينة كان النبي ﷺ يتشاور مع أصحابه في الخروج، وكان من رأيه أن يتحصن بالمدينة فإذا حاولت قريش اقتحامها دافعوهم. ولكنَّ بعض الذين لم يحضروا غزوة بدر تحمسوا للخروج إلى العدو وملاقاته.

وكان هناك تشاور بين القيادة والقاعدة، لأن الإسلام يعلِّم أتباعه الشورى، التي هي مبدأ مقرر في تعاليمه، وعلي الدَّاعِي أن يمارسها عمليًّا مع أصحابه، ولما كان الأكثرية في صف الذين قالوا بالخروج فقد خرج الرسول ﷺ في سبعمائة مقاتل، يقابلهم من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل. والتقي الجيشان عند جبل أُحُد، وَصَفَّ الرسول ﷺ أصحابه ونظَّمهم تنظيماً دقيقاً، لأن الإسلام يحب النظام في كل شيء، وبذلك انتصر المسلمون انتصاراً باهراً، لأن قوة العقيدة، والإيمان بالمبدأ، ومهارة القيادة كل ذلك كان عاملاً أساسيًّا في الانتصار. وفي أثناء الانتصار الباهر ترك الرُّماة مواقعهم، فانكشفَ ظَهْرُ المسلمين، مما جعل طريقاً مفتوحاً أمام المشركين، مكَّنهم ذلك من إحداث خلخلة في صفوف المسلمين، حَدَثَ على أثرها هرج ومرج، واستشهد أسد الله حمزة، عم رسول الله ﷺ، الذي قُتِلَ غدراً من الخلف، ونساء قريش تشجِّع المشركين وتغني إحداهن قائلة:

إنْ تُقْبِلُوا نُعانِقْ ونفرشِ النَّمارِقْ
أو تُدْبِرُوا نُفارِقْ فراقَ غيرَ وامِقْ

وتفرق المسلمون من حَوْلِ رسول الله ﷺ، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، وتدافَعَ المشركون كالسيل إلى الناحية التي فيها رسول الله كل يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يُفاخِر به الأجيال. في تلك اللحظة الرهيبة القاسية، ألقت سيدتنا «نسيبة» سقاءها ـ وكانت تسقي جنود المسلمين ـ واستلَّت

سيفاً، وقامت تباشر القتال بنفسها، وهي المرأة التي ما تعوَّدت على ضربٍ ولا كَرٍّ ولا فَرٍّ، ولكنها تصدَّت لقذائف النبل دون رسول الله ﷺ، وصاحت على ولدها «عبد اللَّه» وزوجها وقالت: شَمِّرُوا، لا يخلص شيء إلى رسول الله وفينا عرق ينبض! ويقول الرسول ﷺ: «**ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلاَّ وأنا أراها تُقاتِلُ في شجاعة نادرة، وبطولة فائقة**». لقد أقبلَ فارسٌ من فرسان قريش فضربَها فتترَّستْ له، فلم يصنع سيفه شيئاً فيها، وَوَلَّى، فهجمت عليه «نسيبة» وضربت عرقوب فرسه فوقع على الأرض، فنادى النبي ﷺ على ابنها: يا ابن أُمِّ عمارة.. أُمَّكَ.. أُمَّك.. فعاوَنَها ابنُها حتى قتلته.

بارَكَ الله فيكِ يا أُمَّ عِمارة، لقد ضَرَبْتِ مثلاً رائعاً على أن المرأة صاحبة العقيدة لم تتخلَّ عن مبدئِها، ولم تهن عزيمتها، ولم تضعف، يقول عبد اللَّه ولدها: جُرِحْتُ يومئذٍ جرحاً في عَضُدِي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرَّقْلَة[1]، ولم يعرِّج عليَّ، ومَضَى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: «**اعصب جرحك**»، فتُقْبِل أمي إليَّ ومعها عصائب في حِقْويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي واقفٌ ينظر إليَّ، ثم قالت: انهضْ، فضارِبِ القومَ، فجعل النبي ﷺ يقول: «**ومَنْ يُطيق ما تُطِيقينَ يا أُمَّ عمارة؟!**».

لقد كان الموت يتمشى خلال الصفوف والدماء تسيل أنهاراً، وأم عمارة واقفة في شجاعة لم يأخذها الوهن، أو يتسرب الخوف إلى نفسها. لقد صمدت «نسيبة» حيث فَرَّ الفوارس الصناديد، ورآها الرسول ﷺ وتَذَكَّر الليلة التي بايعته فيها على السمع والطاعة، وأقسمت أن تفديه وتقف دونه تستهين بالروح والمال. رآها النبي في موضع الوفاء والفداء.

لقد شهدت تلك الموقعة فقاتلت وأبلت بلاءً حسناً، وجُرحت اثنا عشر جرحاً، مما جعل النبي ﷺ يقول: «**لَمَقامُ نسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان**». إنها باشرتِ القتالَ والذَّوْدَ عن رسول الله ﷺ حتى جُرحت في عاتِقِها

---

(١) الرقلة: النخلة الطويلة.

جرحاً له غور أجوف، فلما سُئِلَتْ: مَنْ أَصابَكِ بهذا؟ قالت: ابنُ قميئة، وقد وَلَّي الناسُ عن رسول الله ﷺ، وكان ابن قميئة يقول: دُلُّوني على محمد، فلا نَجَوْتُ إنْ نَجا. وكان مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. لقد دعا رسولُ الله ﷺ لها ولأولادها في هذا الموقف، فقال: «**رَحِمَكُمُ الله أَهْلَ بيتٍ**». قالت: ادْعُ الله أن نُرافِقَكَ في الجنة. فقال: «**اللَّهُمَّ اجعلهم رُفقائي في الجنة**». فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا؟! إنها لم تطلب منصباً ولا مالاً، ولا أي شيء من عَرَضِ الدنيا، لأنها علمت بأنها فانية قليلة، وزائلة، فسألت عن الشيء الباقي الدائم، وهو مرافقة الحبيب في الجنة. هذا ولقد أقبل الرجلُ الذي ضرب ابنها، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا ضاربُ ابنك**». فقامت فاعترضته، فضربت ساقه فبرك، فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجِذَهُ، وقال: «**اسْتَقَدْتِ يا أُمَّ عِمارَة!**».

إن نسيبة أم عمارة ما قصَّرت ولا ركنت إلى الراحة والخمول، وإنما أبلت البلاء الحَسَن، مما كان له الأثر الطيب عند الله ورسوله، وفي دنيا الناس. إنها لم تتخاذل، فلما انتهت المعركة ـ وهي صابرة محتسبة جراحها عند الله ـ ونادى مُنادي رسول الله ﷺ بالذهاب إلى «حمراء الأسد» شَدَّت «نسيبة» عليها ثيابها وخرجت وما تَخَلَّفَتْ برغم ما بها من جراح، وكانت في الفئة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]. ورجعت راضية النفس قريرة العين، تقوِّي عزائم أولادها. وشهدت بيعة الرضوان تحت الشجرة التي قال الله فيها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[2].

وكان من أولادها ابنها «حبيب» الذي كان يتمتع بالحيوية والقوة والنشاط، وقد بعثه المسلمون بخطاب إلى مسيلمة الكذاب فقبضَ عليه، وأوثقه بالحبال، وطلب منه أن يشهد بأنه رسول، فرفض، وهنا قَطَّعَه مسيلمة عضواً عضواً، وكان

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٨.

كلما سمع اسم رسول الله ﷺ آمن به ﷺ، وإذا سمع اسم مسيلمة قال: لا أسمع ذلك، لأنه تربَّى في بيت الإيمان الحقيقي. وعلمت «نسيبة» باستشهاد ولدها على تلك الصورة البشعة، ولكنها لم تلطم خَدًّا، ولم تتلفظ بلفظ يغضب الحَكِيم العليم، ثم إنها تمنَّت الشهادة في سبيل الله لنفسها ولبنيها، فصبرت واحتسبت ذلك عند الله، ولكنها نذرت لله أن ترى مقتل مسيلمة الكذاب وقد كبر سنها، ووهن عظمها، ونادى مُنادي الجهاد للتوجُّه إلى مقر مسيلمة، فخرجت مع الجيش بقيادة خالد بن الوليد، وعندما قامت الحرب تفرَّق المسلمون، وصاح فيهم خالد قائلاً: «وا محمداه!»، فأقبل المسلمون من جديد، وارتفع اللواء، فَذَكَّرَ «نسيبة» ماضي جهادها ومواقفها البطولية، فمدَّتْ يدها وأَخَذَتْ سيفاً، وهجمت مع نفرٍ من خُلَّصِ المسلمين، فيهم ولدها عبد اللَّه، وكانت هي تشجِّع القوم وتضرب برغم تقدُّم سنها، وبرغم أنَّ ذراعها قُطِعَتْ، إلا أنها نذرت أن تري قَتْلَ مسيلمة الكذاب، وانتصر جيش المسلمين، وقُتِلَ اللعين، وسجلت أم عمارة لنفسها عملاً بطوليًّا رائعاً، وخرجت بوسامٍ آخر، لأنها في معركة «أُحُد» خرجت باثني عشر جرحاً غير الذي في رقبتها، أمَّا في معركة «اليمامة» التي شهدتها أخيراً فقد بُتِرَ ذراعُها، ومع ذلك فهي راضية صابرة ولله شاكرة. لقد رجعت أم عمارة مع جيش المسلمين المنتصر وهي تمشي تحت هذا اللواء الذي يذكِّرها بماضٍ تليد، وجهادٍ عظيمٍ مع خير البشر أجمعين، وها هي ذي اليوم تراه مرفوعاً، فحمدت الله وأثنت عليه، وشكرته على ما أعطى.

وبقيت أم عمارة «نسيبة بنت كعب» بعد ذلك في بيتها يزورها الصحابة، ويتردد عليها القادة، ويَفِدُ عليها أصحاب الحاجة، وهي توجِّه هذا، وتَعِظُ ذلك، وتمنح المحتاج، ووسام الاستحقاق من أعلي الطبقات أمام أعين الجميع، فيتذكَّرون جهادها وماضيها وصمودها، فيشهد لها بالوفاء، ويرضي عنها الجميع.

لقد كان النبيُّ ﷺ يزورها في حياته، ويجلس في بيتها، ويأكل عندها، ويدعو الله لها، وكفاها من دنياها فخراً أن رسول الله ﷺ لقي ربه وهو راضٍ عنها.

وعادت النفس الهانئة الراضية المطمئنة إلى ربها، فنامت في البقيع مع

الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وأصبحت سيرتها مثلاً يُضرب لبناتنا وأمهاتنا وأخواتنا في البطولة والفدائية، والدفاع، وحسن الاستعداد، والإقدام، وليكون هذا مثلاً رائداً تحتذي به المرأة وتتعلم منه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] ولقيت «نسيبة» ربها بعد جهادٍ عظيم ودفاع عن الدين.

ونامت «نسيبة» نومتها الأخيرة، وانتشر في الآفاق ذكرها ليكون عبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[2]. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3].

زبيدة بنت جعفر

أبوها خليفة، وجدها خليفة «المنصور»، وعمها خليفة «المهدي»، وزوجها خليفة «هارون الرشيد»، وابنها خليفة «محمد الأمين». أحاطت بها الخلافة من كل جانب، فهي كوكب السَّحَر في سماء العظائم وآخر السُّوَر من كتاب العزائم. إنها الفاضلة الكريمة النبيلة، ذات الحَسَب والنَّسَب زبيدة بنت جعفر، حفيدة المنصور وزوج الرشيد وأم الأمين. نشأت في مهد الدولة العباسية، فكانت في محل الرعاية والتقدير، وموطن العطف من قلوبهم، ومهبط حبهم.

كان جدها «المنصور» يؤثرها بقلبه، ويختصها بحبه، وسمَّاها «زبيدة» لما رأي من بضاضتها ونعومتها. كانت موفورة العقل، كريمة اليد، نبيلة الخُلق. لقد ذكر الرواة أنها بذلت الكثير والكثير في بناء المساجد، كما بنت المنازل التي ينزل فيها الغرباء، وحفرت الآبار ليشرب منها الذين يعبرون ويمرون من حولها، ذلك لأن الحُجَّاج كانوا يملأون القُرَب ماءً ويحملونها معهم، فقامت هذه السيدة الفاضلة بحفر الآبار، خاصة «عين زبيدة» التي أصبحت تروي أهل مكة والحجيج. ولك أن تعجب إذا ما عرفت أن أحداً من الناس منذ عهد إسماعيل إلى أن جاءت زبيدة لم يحفر ما حفرت وينفق ما أنفقت، حتى إنها أجرت نهراً بين شعاب مكة من العيون.

---

(١) سورة يوسف، الآية ١١١.
(٢) سورة قَ، الآية ٣٧.
(٣) سورة المطففين، الآية ٢٦.

لقد أنفقت «زبيدة» في سبيل ذلك جواهرها ومالها، والتي لا تستطيع الأرقام أن تحصرها، حتى عظم الأمر على خازن المال، وكأنه أراد أن يتوقف، فقالت له «زبيدة» تلك الكلمة الخالدة: «اعملْ ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً».

وأصبحت «عين زبيدة» التي احتملت ماء الحياة سائرة هنية إلى أم القرى ذكرى لها، وأصبحت أثراً لهذه المرأة تُذْكَر بذكرها، لأن نفسها صاغها الله صياغة طيبة، واصطنعها لإذاعة خُلُقه، وابتعثها غرة في جبين الزمن. لذلك كانت «عين زبيدة» أثراً صالحاً تفنى دونه الآثار، وتتحطم المعالم. إنه من المعلوم أن المرأة التي نشأت في بيت العز والغنى تبحث دائماً عن آخر «الموديلات» وآخر صيحة في تسريحات الشعر، إلى آخر ما تبحث عنه الغانيات، ولكن هذه المرأة الغنية سخَّرت غناها لطاعة الله التي كانت حريصة على مرضاته. لقد أسَّست مطاعم للفقراء وكانت تنفق قرابة المليونين من الدنانير لإطعام الفقراء في الأماكن التي أعدَّتها لهم.

وكانت السيدة «زبيدة» بحكم وضعها الاجتماعي لها جَوارٍ «خَدَم» أكثر من مائة، فقامت بتحفيظهن القرآن الكريم عن ظهر قلب، وجعلت لكل واحدة منهم ورداً تقرؤه كل يوم، بحيث لا تمضي ساعة إلاَّ وفي بيتها قرآن يُتْلَى. وكان يُسْمَعُ في قصرها القرآن كدويِّ النحل. كما كان لها مجلس تُرخَي فيه الستائر ويحضر العلماء وتناقشهم في المسائل العلمية، مما يدل على موفور عقلها، وبُعْد نظرها، وكانت تقصد بهذه المناقشات نشر العلم، وتقدير أهل الفضل.

ويذكر التاريخ أنها أوصت «عليَّ بن عبس» حين خرج من عند ولدها «الأمين» قائداً للجيش لقتال «المأمون» فقالت: «يا عليّ... إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي فإني على عبد اللَّه «المأمون» متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ولدي ملك نافَسَ أخاه في سلطانه... فاعرف لعبد اللَّه حق ولادته وإخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لَسْتَ نظيراً له، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد أو غُلٍّ، ولا تمنع عنه جارية أو خادمة، ولا تعنف عليه في السير، ولا تُساويه في المسير، ولا تركب قبله، وخُذْ بركابه إذا ركب، وإن شُتمت فاحتمل منه».

هذه وصية لقائد الجند الذي خرج لملاقاة عدو ابنها، وتأمل ما في الوصية من أدب، مما يدل على الخُلُق والأصالة والتديُّن، ومعرفة أقدار الناس، وإنزالهم منازلهم. لذلك نقدِّمها كنموذج فريد، نشأت في بيت العز، وترعرعت على بساط الثراء، ومع ذلك فلم يشغلها الغنى، ولم يبطرها ما هي فيه، وإنما صنعت المعروف لتبين لنا أن الخير كل الخير في الخُلُق الكريم، وحُسن العلاقة بالمجتمع، وتقديم العون والمساعدة في العمل الاجتماعي العام الذي يرفع قَدْرَ الإنسان ويُقرِّبه من ربِّه ويحبِّب الناس فيه. ولا شك أن أَلْسِنَةَ الخَلْقِ أقلامُ الحق، لذلك فإن «زبيدة» برغم مرور الزمن فإن ذِكْرَها باقٍ، وسيرتها تتردَّد بين الناس بكل تقدير ومحبَّة، ودعاء لها بالرحمة والمغفرة. وأسكنها الله فسيح جنَّاته مع الصالحين الطائعين، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

الخاتمة

هذه نماذج متعددة للمرأة المسلمة، تبيِّن كيف عاشت تحت ظلال الإسلام، وأدَّت واجبها بدقة... وصانت نفسها فتاة... ورعت حق زوجها شابة، وأدت واجبها في بيتها بمهارة فائقة... وقامت على تربية أولادها أُمًّا تُقدِّر القيم الأخلاقية، والأدب العالي، ومكارم الأخلاق، فشهد العالم بفضلها.

إن المرأة في سبيل الله، وفي سبيل دينها، وفي سبيل بيتها أعطت الكثير، لأنها آمنت بأن هذا دورها وتلك وظيفتها الأصيلة. فهي إنْ نزعت إلى خُلق فاضل أفاضت على القوم حب التضحية وجمال الخيال. ولقد لقيت المرأة العربية في جاهليتها مكانة سامية ومجالات عظيمة درجت فيها إلى أن أصبحت ملكة في بعض الأماكن. وإن كانت في أماكن أخري تعثَّر بها الدهر وتغشَّتها ظُلل من الفزع، فقد أُكرمت في أماكن حتى كان الابن يُنادى بأمه لأنها الشرف الذي يحميه فقال القائل:

أبـا هِنْـدٍ فـلا تَعْجَـلْ علينـا وأَخِّـرْنـا نُخَبِّـرُكَ اليقينـا

ومن العرب من كان يرى البنت حِمْلاً فادحاً يضعف هو عن احتماله، وتتخاذل قواه دونه لفرط ما يشفق من وصمة الذل إذا وهنت نفس ابنته أو ذهب السباء بها ـ أي: يأخذها أحد أسيرة ـ فكان إن استبقاها حية فعلى كُرْهٍ لها، ومضض منها، وترقُّب لموتها. وفي بعض الحالات يفزع إلى الأرض يحفرها ثم يقذف بابنته فيها، ويُهيل التراب على نضارة وجهها، ويسكت صوتها ما يملأ فيها من حجارة وتراب. لذلك عندما أسفر نور الإسلام وافترَّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جو مشرق، وأمل جميل، وأسلوب في الحياة جديد، وأضاء الكون بنور الله، ونزل القرآن على سيد البشر، عاب القرآن على بعض العرب الذين سلكوا بالمرأة إلى انتقاص قدرها وإهانتها، فقال الله جل شأنه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ

مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1]. وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[2]. ونرى أن السؤال من الله للموءودة فيه احتقار للوائِد، وتقليل لشأنه، لفرط السخط عليه، لأنه من شناعة جُرمه لا يستحق أن يُوَجَّه السؤال إليه.

لقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ وبعض العرب يأنف أن يداعب ابنته، أو يسمح لها أن تمرح بين يديه، أو يظهر عليها الفرح، فلما نزل الإسلام على نبي الإسلام وورفت أغصانه نعمت المرأة تحت ظلاله، وتقلبت بين أعطاف الخير، ونهلت من معين العلم، حيث ضرب لها بسهم في التشريع، وشُرِعَ لها من الحقوق ما لم يُشْرَعْ للمرأة في أي عصر من العصور. نعم، إن الذي غيَّر الأفهام وصحَّح موازين الاعتدال هو الإسلام بما شرع، ونبيُّه بما طبَّق، لأن رسول الله ﷺ نقض تلك السُّنَّة السيئة، فكان يداعب الولائد من بناته أو بنات صحابته.

روى البخاري عن أبي قتادة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وأُمامَة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلَّى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها...».

وأمامة أمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وكانت أمامة من أحب البنات إليه. كما حدَّثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: «أتيتُ رسول الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميص أصفر، فقال رسول الله ﷺ: «ستة، ستة»... وهي بالحبشية: حسنة، حسنة. قالت: «فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فانتهرني أبي... فقال رسول الله ﷺ: «**أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي**». ولقد خاطب الرسول ﷺ أم خالد بلغة الحبشة، لأن أباها وأمها من المهاجرين إليها، وهي وُلدت هناك... وأبلي وأخلقي: أي البسي ودوِّبي كثيراً، وعمِّري وأنت بصحة... لذلك عمَّرت كثيراً.

ولقد أبصر المسلمون حب النبي ﷺ لفاطمة وشغفه بها وحنانه عليها حتى قال فيها: «**فاطمة بضعة مني، يسوؤني ما يسوؤها، ويسرني ما يسرها**».

إن المرأة قسيمة حياة الرجل، وعماد أمره، ومهبط نجواه، من أجل ذلك

---

(١) سورة النحل، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) سورة التكوير، الآيتان ٨ ـ ٩.

رفع الإسلام قدرها وسَما بها، وأعلن رسول الله ﷺ: «**ما أَكْرَمَ المرأةَ إلاَّ كريمٌ، وما أَهانَها إلاَّ لئيمٌ**». إلى تلك المنزلة السامية رفع الله قَدْرَ المرأة ليكل إليها أشرف منازل الحياة. منزلة الأستاذ الذي لا يُمحي عِلْمه... منزلة التربية والتعليم... فليست المرأة بالخلق الضعيف.. ولا بالخلق الحقير... فإنَّ مَنْ وكَّله الله بابتناء الكون وإنشاء الأمم كيف يكون حقيراً؟

أَلاَ إنما المرأة عماد الكون لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به، فإن هي وهنت دونه وتخاذلت عنه تهاوت عُمُده، وتصدَّعت جوانبه، وانهدَّ البناء. فللمرأة من دقة الحس وقوة العاطفة وبُعْد الخيال فوق ما للرجل. لذلك كان احترام الأم في الجاهلية طبعاً مألوفاً، فأصبح بالإسلام فوق ذلك فرضاً محتوماً، لأن الله سبحانه وتعالى ما كان ليخرج الرجال من مخرج سيئ، أو ينبتهم منبتاً فاسداً، أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة، ثم يطلب منهم أن يسعوا إلى أشرف الغايات وأسْمَي المقاصد.

لو كان الأمر كذلك لكلَّف الرجال شططاً، وجشموا محالاً، فإن المرأة من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فإن وهنت كان كل ما في الجسد واهناً وضعيفاً. لذلك عمد الإسلام ـ أول ما عمد ـ إلى المرأة فأنصفها ورفع شأنها.. لقد استمع العالم في يوم من الأيام إلى «لنكولن» زعيم الجمهورية الأمريكية وهو يقول لمهنئيه: «لا تهنئوني وهنِّئوا أُمِّي، فهي التي رفعتني إلى مقامها».

ولقد كانت المرأة في أنحاء الدنيا تنصت لهذا الكلام فتتطاول بأعناقها، وتزهو بما تستمع، لكن المرأة المسلمة استمعت إلى أكثر من هذا وأعظم وأحسن من نبيّ الإسلام وهو يقول للرجل الذي يسأله ويقول: مَنْ أَحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صُحْبَتي يا رسول الله؟ قال: «**أُمُّك**»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّك**»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّك**»... قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**أبوك**». لذلك اجتمع للمرأة المسلمة ما لم يجتمع لغيرها من إقرارٍ بحقها في التربية ومجالات العمل، وإمعان في احترامها، ولهذا نراها وقد نبغت في شؤون الأدب وفنون العلم.

ولقد امتازت المرأة المسلمة بالصدق في العلم والأمانة في الرواية ومعاذ الله

أن نقول ذلك محاباة لها أو مشايعة لموضوع كتابنا. ولك أن تتأمل أن الحافظ الذهبي - وهو من كبار العلماء وأجلّهم، ومن عظماء المحدِّثين (توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة) وألَّف كتابه «ميزان الاعتدال» في نقد رجال الحديث، وخرَّج فيه أربعة آلاف منهم من المحدثين. وفي النهاية كتب بخط يده الواضح وقلمه العريض فقال: «وما علمتُ من النساء من اتهمت، ولا من تركوها»[1]. ومن المؤكد أن حديث رسول الله ﷺ منذ عهد عائشة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين حتى عهد الذهبي ما حفظ ولا روي بمثل ما حفظ قلوب النساء ورُوِيَ على ألسنتهن.

وإذا ما عرفنا أن الحافظ ابن عساكر وهو أحد رواة الحديث الثقات وأصدقهم، «لقَّبوه بحافظ الأمة»، كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[2]... كما أن محمد بن سعد صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ذكر من النساء اللاتي ذكرهن كراويات للأحاديث النبوية أكثر من سبعمائة امرأة روين عن رسول الله أو عن الثقات من أصحابه، وروي عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين.

لقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تجيد القراءة، كما كانت حفصة أم المؤمنين تحسن الكتابة ، وكانت الشفاء بنت عبد اللَّه بن عبد شمس هي التي علَّمتها ذلك[3]. وعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، وهو العالم الأشم الذي لا يدانيه أحد في علمه وحكمته، يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله ﷺ كانت تقوم على خدمته، هي ميمونة بنت سعد[4].

فهل سمع الناس بمثل هذا التكريم للمرأة في عصر من العصور؟! إنه الإسلام ونبيّ الإسلام.. ونحن ننادي على الذين يتحدثون عن المرأة ونقول لهم: تعالوا

---

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبى، ج ٣.
(٢) «طبقات الشافعية» للسبكى، ج ٤.
(٣) «الإصابة فى أخبار الصحابة»، ج ٧.
(٤) المصدر السابق.

«اقْرَءُوا كِتابِيَة». ومن عجب أنَّ نفاذ رأي المرأة ورجاحة كفَّتها ليس وقفاً على الدين وحده، بل هناك الشعر، والأدب، والتاريخ، والطب، والفلك، والأنساب، كان للمرأة باع طويل في كل تلك المجالات... وفي ذلك يقول عروة بن الزبير فقيه المسلمين: «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[1].

ولقد كانت زوجات النبي ﷺ قسيمات عائشة في إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين. ولقد حدَّث أن عائشة بنت طلحة وَفَدَتْ على هشام بن عبد الملك فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق. قال: إني سأعرِّفه حقك. ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة... فحضروا، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلاَّ أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمَّته لهم، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة. فأمر لها بمائة ألف درهم وردَّها إلى المدينة[2].

كما ذكروا أن الحجاج تحدث عن نسائه فقال: «عندي أربع نسوة: هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاّس بنت عبد الرحمٰن، وأمة الرحمٰن بنت جرير بن عبد اللَّه البجلي... فأما ليلتي عند بنت المهلب فليلة فتي بين فتيان يلعب ويلعبون... وأما ليلتي عند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك... وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم... وأما ليلتي عند أمة الرحمٰن فليلة عالم بين العلماء والفقهاء»[3].

لقد وردت المرأة المسلمة على الإسلام فلم تتجاوز العَبَّ من هذا المنهل العذب، فكان قولها قطعاً من قلبها ومشاعرها، فهي إذا خطبت أو كتبت أو شافهت أو نظمت لم تبعد في القول عمَّا تؤمن به وتهفو إليه، لأنها استمدت وحي البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها وخطرات سرائرها، وتلك شواهد موجزة مجملة

(١) «طبقات ابن سعد»، الجزء الثالث.
(٢) «الأغانى» لأبى الفرج الأصبهانى، ج ١٠.
(٣) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، الجزء الثالث.

لشخصيات قليلة، لكن هناك مئات الملايين ممن تزخر بهن الكتب اقتطعنا لك هذا الجزء لتعرف وثبة الإسلام بالمرأة التي هي عماد البيت، وأيضاً دعامة الحياة، فهي لم تدع موطناً عظيماً ولا مشهداً حافلاً ولا عملاً خالداً إلا وكانت فقار ظهره وعماد أمره، فلقد جلست إلى رسول الله ﷺ متحدِّثة ومتعلِّمة، ورافقت جيشه آسية ومداوية، وجالت بين يديه مقاتلة مستبسلة، وهاجرت إلى الحبشة مع السابقين الأولين، كما هاجرت إلى المدينة لأنها لم تقصر، فأجزل الله في كل ذلك مثوبتها، وأحسن النبي مآبها، وأكبر المسلمون مواقفها.

ونحن نؤمن بأن المرأة وإنْ جاذبت الرجل حبل العمل وساجلته جد الحياة فقد احتملت من العبء أثقله، ونالت من النصيب أقلّه، وربما تناولتها المصائب من كل جانب، فلا تجد من حُسْن العزاء إلَّا ما وعد به رب الأرض والسماء: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[1]... لقد بايعت المرأة الرسول كما بايع الرجل، وقَدِمَ عليه وفد من النساء فقلن: يا رسول الله، إنَّ رجالنا قد بايعوك وإنَّا نحب أن نبايعك... فبايَعْنَهُ... وتلك بيعة طوَّقت إيمانهن. ثم أصغين إلى ما كتب الله للصابرين والصابرات من عظيم الأجر وجميل المثوبة، لأن الصبر خلَّة الأنبياء وآية المقربين وسُنَّة الصِّدِّيقين لذلك تحلَّت بالصبر.

ولقد أتانا نبأ «الخنساء» وهي امرأة عاشت في الجاهلية والإسلام... وفي الجاهلية قُتِلَ أخواها فأقامت الدنيا ولم تقعدها، وحديث جزعها وتصدع قلبها واضطرام حشاها على أخويها مشهورٌ مما نطقت به أشعارها، وذاعت بحرّه أخبارها... لقد استحال كل ذلك إلى صبر صاغه الإيمان، وجمَّله التقى، لأن الإسلام عمد إلى قلب المرأة فاستلَّ سخيمته، وأخرج ضغينته، وطهَّره من غل التأثر ونزعة الانتقام، لأنها عرفت أن الله شرع القصاص، واستنقذ العرب من منازع الفتن وطلب الثأر. لذلك طهَّر الله نفسها، وحصر عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل. لهذا رأينا الخنساء تقول لأبنائها ـ وهم أشطار كبدها ونياط قلبها ـ عندما خرجوا إلى القادسية، وكانوا أربعة، فأوصتهم قائلة: «يا بني،

(١) سورة الزمر، الآية ١٠.

إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إلٰه إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنتُ حَسَبَكم وما غيَّرتُ نَسَبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية... اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون... فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها وجللت ناراً على أرواقها فيمِّمُوا وطيسها، وجالِدُوا رَسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

فلما كشَّرت الحرب عن نابها تدافعوا إليها، وتواقعوا عليها، وكانوا عند حُسْن ظن أُمِّهم بهم، وقُتِلُوا واحداً بعد واحد، فلما وافاها النعاةُ بخبرهم، لم تزد على أن قالت: «الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

ذلك مثل الكمال في أسمي فضائله، وقوة الإيمان في أعلي درجاته... ولم تقف المرأة الإسلامية عند حد النبوغ في العلم الديني والأدب العربي، لكنها أخذت بنصيب موفور من النهضة التي استحدثها المسلمون، فهناك من النساء من برعن في فروع الطب، ونبغ منهن عدد موفور.

ولعله من الأفضل أن نختم حديثنا عن وقفة عند عصر «الحكم بن الناصر» الذي ولع فيه أهل الأندلس بالشعر والغناء، وجنوا قطاف الفنون والعلوم، فقد كان هناك بعض النساء في هذا العصر قد اعتزلن ما عاش فيه أهل الأندلس من مرح وفرح، وشعر كله غزل ووصف... وكان هؤلاء النسوة في عزلتهن يُقبلن على الدروس الدينية وينصرفن إليها ـ وإذا قلنا العلم الديني فإن علوم الدين تشمل كل علوم الحياة ـ وكان من بين هؤلاء امرأة تسمي «لُبْنَى»، جمعت إلى جمالها الساحر إحاطتها بالشعر، والنحو، والرياضة، وعلوم القراءات، وكانت تكتب رسائل الخليفة «لأنها من نسائه» بأسلوب يملأ النفس روعة، لجمال التعبير، ونسق الضبط... وخط يملأ العين جمالاً... وكذلك كانت هناك «فاطمة»، وكانت في رجاحة عقلها «كَلُبْنَى»، وكان لكل منهما مكتبة جمعت أعظم الكتب وأنفسها. وهكذا إذا ذهبت تقلِّب في تاريخ النساء فسوف تجد ما يسرُّ النفس ويسعد القلب،

وتلك حكمة الله الذي ﴿يُؤْتِي الحكمة من يشاء، ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً﴾.

إن كرامة المرأة في الإسلام تتناول شخصها وسيرتها، وتشمل مشهدها ومغيبها، فهي في موطن الرعاية والعناية، واسمها بمنجاة من لَغْوِ القول ومنال اللسان... ولقد منحها الإسلام أن تجير الخائف، وتفك العاني... فقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل... ولقد أراد الإمام عليّ كرَّم الله وجهه أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت إلى رسول الله ﷺ، وسألها عن سبب مجيئها فذكرت خبر الرجلين وإصرار عليّ رضي الله عنه على قتلهما بعد أن أجارتهما، فقال لها الرسول ﷺ: «**قد أَجَرْنا من أَجَرْتِ يا أُمَّ هانئ، وأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ فلا يقتلهما**»... وبعد:

تلك هي المرأة التي وثب بها الإسلام ورفع شأنها، ومنحها الحرية المنضبطة على القيم الأخلاقية، والتقاليد الاجتماعية، والعرف السائد... قدَّمْنا ما قدَّمناه لأننا نريد من نسائنا أن ينهضن كما نهضت جدَّاتهن وعليهن أن يتخذن من الوسائل ويتلمسن الخُطَي بما يحفظ لهن الكرامة، لأنهن منابت حُماتنا، ومنار دعوتنا، ومثار قوَّتنا، وما نحن وإياهن إلاَّ كجناحي النسر الصاعد، إذا هِيضَ أحدهما خفض الآخر.

إننا ننزع إلى الكمال لأن لنا فيه نسباً عريقاً، وطريقاً عميقاً، فنحن مطلع فجره، ومبعث فخره، وهو ميراث ورثناه عن أجدادنا وآبائنا، ولكننا سُلبناه في غفوة الزمن وظلام الليل، وها نحن اليوم نحاول أن نسترده ونرد عنه كيد الأعداء.

وتلك صفحات من صفحات تاريخنا الذي نعتز به ونطرب له، ولعلها أحفل الصفحات بالعظات، وأجمعها للعظائم... لكل ذلك أناشد نساءنا أن يسدلن الحُجُبَ بينهن وبين نساء أوروبا، ففي أمهاتنا المسلمات الأوليات فضل وغناء، لأن ما انحدرت إليه المرأة الآن هو غثاء مُسْتَحْدَث، وصدأ عارض ألقاه علينا تطاول الزمن وتتابع الحادثات... فسعياً للوصول إلى الكمال المطلق أُقَدِّمُ ما قدَّمت من حديث عن المرأة، وهو ليس للنساء فحسب، بل للرجال كذلك، فإن

صلاح كل من الفريقين لا يقوم إلاَّ على صلاح صاحبه... وسيرى الناس أن الإسلام أعطى المرأة ما لم تعطها الحضارة الحديثة...

وأسأل الله العلي القدير أن يهيئ لنا من أمرنا رَشداً، وأن يأخذ بأيدينا إلى طريق الخير، ضارعين إلى الله في خشوع، قائلين: ﴿**ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّة أعين**﴾. هذا وبالله التوفيق.

وصلَّى لله على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

منصور الرفاعي عبيد
وكيل وزارة الأوقاف
للمساجد وشؤون القرآن

عضو اتحاد الكتّاب